الفصل الثاني

ترجمة حياة اللواء الركن
محمود شيت خطاب

obeikandl.com

obeikandl.com

ترجمة حياة اللواء
محمود شيت خطاب (٣)

إنه المفكر الإسلامي المعروف محمود شيت خطاب، وشيت هو أبوه، ويضبط اسمه بالتاء جرياً على مألوف أهل الموصل، الذين يميلون إلى هذا الاسم لما يقال من أنَّ شيت بن آدم عليه السلام مدفون في أرضهم.

مولده وأسرته:

ولد في الموصل عام تسعة عشر وتسعمائة وألف للميلاد من أسرة توارثت العمل في التجارة وتربية المواشي، وكان جده الخطاب من موسري الموصل، وبدافع من حبه للدين والتزامه شعائره، كان يتمنى في ذريته مَنْ يتفرغ لعلوم أبويه، وهكذا وجّه ابنه، والد المترجم، إلى هذا المسلك، فدرس على بعض شيوخ الموصل، ويسمى منهم الشيخ محمد الرضواني، وعبد الله النعمة، والشيخ مصطفى بيك آل قره مصطفى الذي بدأ حياته العلمية على يده، واستمر كذلك حتى تخرج في مدارس هؤلاء الأعلام، فحقق أمنية والده الذي كان يسره أن يؤمه ولده في الصلاة.

وشاء الله للمترجم أن ينشأ في حضانة جدته لأبيه، إذ زاحمه على أمه أخوه الأصغر الذي ولد بعد سنة من ولادته، فتولت تلك الجدة أمره مكان والدته واستمر ملازماً لها حتى وافاها الأجل.

ويحدِّث عن هذه الجدة وأثرها في طباعه، فيصفها بالعقل والفضل والتقوى. ولاغرابه في ذلك إذ هي من أسرة السيد محمد المعروفة بصحة نسبتها إلى البيت

---

(٣) المصدر: محمد المجذوب ــ علماء ومفكرون عرفتهم طبعة ثانية ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣م ــ عالم المعرفة للنشر والتوزيع ــ جدة. نوردها هنا نصاً زيادة في التعريف بصاحب السيرة وكما كتبها الشيخ محمد المجذوب مع الإشارة والتنبيه عند اللزوم إتماما للفائدة.

الحسيني، ولا تزال الكثرة من هذا النسل الشريف في مختلف أنحاء العالم الإسلامي يغلب عليها الالتزام بروح الدين، وتتوارث هذا المسلك جيلاً عن جيل، ومن هنا كان لهذه الأسرة أثرها العميق في تكوينه النفسي.

يقول المترجم عن جدته: كانت تصحبني إلى المسجد القريب لصلاة المغرب، فإذا قضيت الصلاة أصغيت معها من مقصورة النساء إلى مواعظ الشيخ داوود، ذي الأسلوب المؤثِّر، حتى تنهض لصلاة العشاء.. ومن ثم تنصرف لتناول الطعام، وربما طلبت عشاءها فلا تجدْ، فلا تزيد على أن تبتسم وهي تقول: لا بأس.. حصتي في الجنة إن شاء الله. فإذا أوينا إلى النوم أخذت بذكر الله والاستغفار، ثم لا تدعني حتى تتحقق من نومي، فتتسلل لصلاة القيام.

ولطالما استيقظت على نشيجها أثناء صلاتها، فإذا ما شعرت بي عادت لتحنو عليّ. واستمر هذا دأبها حتى توفاها الله وأنا في السنة السادسة عشرة، فكان لوفاتها وقع لا يمحى في نفسي وعقلي.

بيئته:

ويصف البيئة الاجتماعية المحيطة بذلك البيت فيقول: كانت تمتاز بالتعاون الودي والتعاطف الأخوي، فالكل متشاركون في السراء والضراء، ملازمون للصلاة، ملتزمون بالحق الإسلامي، إذا افتقد المرض أحدهم زحفوا لعيادته. فإذا كان المريض من ذوي الحاجة دسوا له في السر ما يقوم بأوده حتى يسترد عافيته.

مدارس ومساجد:

بدأ السيد المترجم دراسته في الكُتاب، منطلق المعرفة الأول، الذي شرع في التواري منذ شددت السلطات الرسمية سيطرتها على مرافق التعليم في البلاد الإسلامية، فتلقى بواكير دراسته في القرآن والخط، حتى إذا أصبح مؤهلا للمدرسة الإبتدائية انتقل إليها فألحق بالسنة الثانية، ومن ثم واصل دراسته

هناك حتى انتهى إلى السنة السادسة . ويضم المترجم إلى بيئة المدرسة هذه مجلس الحي الـذي كـان حتى عهد قـريب أحـد مصـادر التكوين الفكـري في البـلاد الإسلامية، وهو أشبـه بنادٍ ليلي طاهر يقوم من كل محلة في قـاعة خاصة من دار أحد الأعيـان . حيث يتوافد الرجـال لقضاء السهرة في جـو من المودة الخالصة . فها هنا تحل المشكلات وتقصّ الأخبار، وتقـرأ بعض الكتب النافعة في الفقه أو الحديث أو التاريخ أو القصص .

يقـول السيـد المترجم : لقـد كنت ألازم مجلـس والـدي هـذا، مع أني لم أكن تجازت الصف السـادس الابتـدائي بعـد، فقد وقع اختيـار والـدي عليّ لقـراءة التـاريخ على الحضور، الـذين كـان معظمهم من أهل العلم المتقنين للعربيـة، وكان ذلك بمثـابة امتحـان يومي بـالنسبة إليّ، لأن هـؤلاء لا يرضـون أن يغضّوا الطرف عن أقل غلطـة يعثر بها لسـاني، فكنت مضطرا للعنايـة بقواعـد اللغة، وضبط الألفـاظ كيلا أتعـرض للوم والدي، الـذي كان يسره أن أكـون في ذلك الامتحان من الناجحين .

ومن الإبتـدائية ينتقل إلى المتـوسطة فـالثانـوية، ولكنـه لا يقف عند حـدود مقـرراتها، كـدأب أمثالـه من أبنـاء البيـوت المعنية بـالعلم، فيظل على صلـة بمجتمعات الشيوخ ـ علماء الدين ـ حتى إذا وافت العطلة الصيفية لم يتخذ منها مطية للّهـو المضيع، كما يفعل تلامـذة اليوم، بل يعتبرهـا، أو تعتبر له، فـرصة لضرب جديـد من الجد في التحصيل عن طريق المساجد، ويقف هنـا على ذكر واحـد من الشيوخ الـذين يحتفظ لهم بأطيب الأثـر، هو الشيخ قـاسم الجليلي، الـذي يقول إنـه كان فـذاً في علم النحو والصرف، ومن ميـزته في هـذا الجانب كتابه «المستدرك على سيبويه، الذي لا يزال مخطوطا» .

ويقص علينا إحدى ذكرياته مع هذا الشيخ فيقول : وافانا رمضان في إحدى هـذه العطل، فكنت أحضر على الشيخ ما بعـد العصر من كل يـوم، حتى إذا قارب مـوعد الإفطـار مضينا في الطـريق إلى داره ونحن نواصـل المذاكرة، وربما

انطلق مدفع الافطار ونحن غارقان في هذا الجو.

ومن هنا، ومن قراءته التاريخ في مجلس الحي، تبلور اتجاهه إلى اللغة والتاريخ. ولا ينسى أن يبرز أثر والده في هذا الجانب، لما كان يجده من تشجيعه عليه، وقد أقر الله به عينيه، فشهد أولى بواكيره في التأليف وذلك في كتابه الموسوم بـ«الرسول القائد» الذي صدر عام ١٩٥٨م بعد أن قرأ له العديد من مقالاته في المجلة العسكرية من قبل.

دراساته العسكرية

كان يتطلّع إلى دراسة الحقوق إثر حصوله على الثانوية، بيد أنّ الله شاء له غير ذلك، فقد أعلنت وزارة الدفاع عن الحاجة إلى دفعة كبيرة للكلية العسكرية، فقدم طلبه مع العديد من رفاقه، وسافر معهم إلى بغداد، وغرضه الأول من تلك الرحلة هو التفرج ومشاهدة معالم العاصمة التي لم يكن قد زارها بعد، وما كان تقديمه الطلب إلى الكلية سوى وسيلة لتلك الغاية، ولكن قدَّر الله أن تخرج قائمة المقبولين وعلى رأسها اسمه، فلم يسعه سوى الالتحاق بالكلية، إلا أنه ظل قلقاً يريد التخلص من ذلك الجو فلا يجد سبيلاً إليه، لأن قادة الكلية وأساتذتها حببوا إليه البقاء، ومازالوا به حتى رضي بالواقع. ثم ما لبث أن ألف تلك الحياة ذات النظام الصارم، وجعلت نفسه تستريح إليها بالتدريج، على أنه لم يستطع الانقطاع عن هواياته الأخرى من اللّغة والأدب والتاريخ وبخاصة الثقافة الإسلامية.

ويقف هنا قليلا ليؤكد على أثر مكتبة آله في عقله وثقافته، فيصفها أنها من المعمرات، إذ مضى على إنشائها سبعة قرون، وهي لا تنفك تزداد اتساعا بما ينضم إليها من جديد الأسفار. ويقدر عدد محتوياتها بخمسة وعشرين ألف كتاب، بينها ديوان مخطوط من شعر أبي تمام، يتضمن اثنتي عشرة قصيدة لم يسبق أن نشرت من قبل. ومن أجل ذلك تعتبر هذه المكتبة هي الأصل في الدار. . وكل شيء بعدها على الهامش.

في سلاح الفرسان

ويتخرّج المترجم برتبة ملازم ثان لينضم إلى سلاح الفرسان. ويتحدث عن واقع الحياة في الجيش العراقي آنئذ. فيرينا العجب العجاب من آثار التوجيه الاستعماري، إذ كان كل شيء هناك يسير بالضابط في طريق التميع والإنحلال، فلا يجد عاصماً إلاَّ أن يكون مزوّدا بالحصانة القادرة على الثبات في وجه الأعاصير بعون الله وفضله.

سأله آمر السرية الذي عُيِّن في كتيبته؟.. أتلعب القمار؟.. أتحب النساء؟ أتشرب الخمر؟.. ولما سمع نفيه الصارم لكل ذلك قال متبرماً: إنَّ ضمك إليّ نكبة عليّ.

وقد عرض سيادته أمثلة وافية من هذا الواقع في كتابه «بين العقيدة والقيادة» لا نرى حاجة إلى إعادتها هنا. ولكن إشارته العابرة هذه تأبى إلا أن تحرك سواكن الذكريات لبعض ما نعرفه من الوقائع المماثلة في أكثر من جيش عربي.

أثناء اختبار المقابلة في إحدى الثكنات العربية كان بين الأسئلة الموجهة إلى الطلاب ما يلي بالحرف.. فماذا تعمل؟.. أي الرجلين بنظرك أعظم.. محمد أو جمال عبد الناصر؟

وبين يدي الساعة العدد٣٤٢ من مجلة «المجتمع» وفي صفحاته ٤٠ ـ ٤٢ صورة من المرافعة التي ألقاها أحد المتهمين في قضية الكلية الفنية المعروفة في بلد عزيز آخر، وفيها يقول «بعد التحاقي بالكلية رأيت.. الفسق والفجور موضعاً للمدح والمباهاة، ورأيت العفة والطهارة توضع في قفص الاتهام.. رأيت مخلوقات قد نقلوا موجة السخرية والاستهزاء بمنتهى الوقاحة إلى الخالق تعالى.. حتى بلغت بهم أن يتغنوا بالأشعار والزجل لعناً في مالك الملك.. وأخذت هذه الطائفة تزيد يوماً بعد يوم حتى أصبح هذا الوضع الحقير يمثل طابع الحياة من حولنا..»

في الدراسات العليا

ويتابع سيادة المترجم سبيله في استكمال دراساته العسكرية، فيقضي سنتين في كلية الأركان، يتخرج بعدها ضابط ركن، ثم يبعث إلى كلية الدراسات العليا في لندن.

ويتحفنا الصديق الفاضل من أخباره في لندن بالطرفة التالية:

يقول: «من المألوف أن يتولى مساعد الكلية تقديم الضباط القادمين من وراء البحار إلى عميدها عقيب وصولهم. وكان هذا العميد يومئذ أحد أبطال العبور إلى النورماندي أثناء الحرب العالمية الثانية، فجعل يسأل كلا من هؤلاء الوافدين عن حاله وبلده وما إلى ذلك. وجاء دوري فسألني: لماذا قدمت؟.. قلت: لتجديد معلوماتي العسكرية، ولتلقي أي جديد من العلم. فعقب على كلامي متهكماً: بل قدمت لتتعلم مغازلة الفتيات.

وكظمت غيظي، وقلت في نفسي: إنَّ هذا لا يلقي كلامه جزافاً، وإنما يحكم عليّ بما شاهده في سواي.. ولما ذهبت إلى السكن المخصص لي وجدت فَرَّاشاً وفتاة تعمل في ترتيب الغرفة، فانتظرت في البهو دون أن أعيرها اهتماما، حتى إذا خرجت سألتني: هل لديك من توجيهات؟ قلت: شيء واحد.. هو أن تحضري لأداء مهمتك عندما لا أكون حاضرا في هذه الشُقَّة.

وأقبل المكلف بإعداد الطعام، يسألنا عن الألوان التي نريد، فعدّدت له المحرمات التي أرفضها، والألوان التي أرغب فيها. وكان معي ضابط من إحدى الدول العربية فقال: الأفضل أن نندمج معهم فنأكل طعامهم على اختلاف أنواعه. فقلت له: لك أن تفعل ذلك.. أما أنا فلن أغير من حياتي مجاملةً لأحد. والعجيب أنَّ هذا (المندمج) قد انتهى إلى الرسوب في حين ظفرت بالدرجة الأولى بين مائة ضابط من أشتات الجنسيات ولله الحمد».

ويتمم حديثه عن هذه المرحلة قائلاً: «كان الفرّاش يلح عليّ بزيارة منزله كشأن سائر الضباط في التردد على مساكن فراشيهم فأرد دعوته بلطف، لأني

كنت موقناً أنه وسائر الخدم المخصصين لنا ليسوا أكثر من جواسيس موجّهين . .

وذات يوم طُرق بابي ففتحته لأرى وجه عميد الكلية يحييني ، وفي أدب بالغ يعرض علي مرافقته وزوجه في نزهة بين الآثار . وهناك بادرني بالاعتذار عما أسمعنيه في لقائنا الأول ، ويؤكّد لي العميق من احترامه وتقديره .

وليست هي بالمرة الأولى التي أواجه فيها مثل هذا الموقف من أجانب يحترمون كل من يحترم نفسه وهويته وعقيدته . »

ولعل أكثر ما يهمنا نحن من هذه الحكاية ما تحمله من إشارات عميقة الدلالات إلى تلك المغاسل الدماغية التي تهيأ في ظلماتها الألغام الناسفة لمقومات الأمن والاستقرار في أوطان المسلمين .

عوامل موجهة

مما تقدم أمكننا الوقوف على اتجاهاته الفكرية إذ علمنا أن العربية والتاريخ هما موضع اهتمامه الأول ، وقد اقترنا معاً منذ تلك القراءات التي كان يكلف بها في مجلس والده ولما يتجاوز نهاية المرحلة الابتدائية ، حيث كان يحاسب على كل لحنة فيدفعه ذلك إلى مزيد من الاهتمام بشئون اللغة ، وتواجهه من أخبار التاريخ الذي يقرؤه أحداث تهز مشاعره وتحرك تفكيره ، فتتنامى رغبته في متابعتها ، حتى أصبحت إحدى هواياته المفضلة . وطبيعي أن يكون للقرآن العظيم أثره الفعال في نفسه ، إذ كان أول ما تحرك به لسانه مطالع حياته التعليمية في ظلال الكتاب . ولا حاجة إلى التذكير بالرباط الوثيق الذي يجمع بين هذه المصادر الثلاثة في قلب الإنسان . أليست العربية هي المدخل إلى القرآن؟ . . والتاريخ مطلقاً . . أليس هو أحد مصادر العبر في دراسة الحياة الإنسانية من خلال هذا الكتاب الحكيم؟ . . ولا جرم أن مَنْ باشر التفاعل مع هذا الجو لا مندوحة له عن تتبع أحداث التاريخ الإسلامي ، الذي في مجاريه تتدفق الدوافع الجياشة التي انطلقت من منافع الوحي لتغير معالم الحياة البشرية جميعاً .

ولن ننس هـاتيك المؤثرات التي أحـاطت بـه في كنف تلك الجِدَّة التقية منـذ فتح عينيه على الحيـاة، إذ ألقى نفسه مغمـوراً بإيحاءتها الروحـانية، وتـوجيهاتها التعبدية حتى سن المراهقة.

ويقول الشيخ محمد المجذوب: «وأرى من المناسب أن أضم إلى هذه العوامل قصة حجه الأول، فهي غير بعيدة عن هذا المجال من حياته ومؤثراته».

كـان في الخامسة عشرة من سنـه، وفي السنة الثـالثة من دراستـه المتوسطـة، مضى في بعثـة للمعارف العراقيـة لأداء فريضـة الحج.، ويصف تلك الـرحلة المباركة بـأنها سعيدة، لا تكاد ذكرياتها تفـارق مخيلته، إذ أتاحت لـه أن يشاهد عن كثب مواطن الـوحي، ومعالم الحياة التي طـالما استهوته أخبارهـا من خلال دراسة السيرة النبوية المطهرة. ولما عـاد إلى بلده نعم بحظه من تلك الاحتفالات المؤثـرة التي تـدخر في العـادة لاستقبـال العـائدين من الحج. ومن ذلك اليـوم أضيف إلى اسمه لقب الحاج، الذي يفرغ على صاحبه التقدير والمهابة، ويجعله حرياً بالإلتزام بالدين الحنيف.

وطبعي أنَّ وضعـاً كهـذا لا منـدوحـة لـه أن يترك طـابعـه في أعماق أفكـاره ومشاعره، فمن حقه إذن أن يحسب بين العـوامل الأخرى التي تمازجت كلها في كيانه.

في مهب العاصفة

لا يسع مؤلفاً يترجم لمثل هذه الشخصية العسكرية أن يغفل الجو العام الذي عاصره سواء في بلـده العراق أو ما حوله من أقطار العـرب، أو ما أحاط بها من أرجـاء العالم الإسـلامي.. ومـا وراءه من أوضاع عـامـة تتناول العصر بأجمعـه وحسبنـا أن نشير مـن ذلك إلى أبـرز الأحـداث التي رافقت نشأتـه في العـراق والأجزاء التي كانت أكثر اشتراكاً في تلك الأحداث من الوطن العربي.

فهناك الاحتلال الذي شمل سائر أقطار العرب والمسلمين خارج نطاق نجد والحجاز. ومعـه الاستعمار اليهودي الذي خطط لـه عبر القرون وقبل عشرات

السنين في بازل[٤]، وقد أقبل لتحقيق أبعاده بقوة الحراب البريطانية، ومن ورائها الثكنة اليهودية الأمريكية. وفي هذا الجو الرهيب من التنكيل والتذليل تفجرت الثورات الإسلامية لتواجه الحديد والنار بكل وسائل المقاومة التي ورثتها من عزة الإسلام.. فمقاتلون يتربصون للعدو في الجبال وزوايا الشوارع والحقول من أقصى البلاد إلى أدناها، حتى إذا تحطم السلاح المحدود تحت دفق السلاح غير المحدود، تحولت النقمة إلى ألوان من التحدي الجبار بالإضرابات المتلاحقة، والتظاهرات المتتابعة، تجابه الرصاص والقذائف بالصدور العارية فتتساقط الضحايا كأوراق الشجر عصفت بها زوابع الخريف.

ومن خلف هذه الضروب الدامية من النضال تتسلل الأيدي الخفية إلى معاقل التراث الروحي والفكري في الظلام، فتعمل فيه تخريباً وتحويراً، لتقضي على بذور الجهاد الإسلامي في النشء القادم، حتى إذا نفدت مقومات الكفاح بانتهاء بقايا الجيل المقاوم، لم يبق أمام المستعمر ما يخشاه على سلطانه من الوافد الجديد، الذي لا بد أن ينسى صلته بمنابع العزة فيخضع للواقع ويزداد كل يوم إعجابا بحضارة هذا الغادر المحتل، حتى يصبح بمحض اختياره ذيلاً تابعاً لهواه يحركه أنى شاء، وفي كل اتجاه.. حتى إذا انتهى دور الاحتلال العسكري في بلاد العرب، وتوارى جنوده وطواغيته عن أعين الناس، جاء دور خلفائه الذين أعدهم لهذه الخلفية، فراحوا يتممون ما بدأه من تدمير لبقايا حصون الإسلام بألوان من العدوان لم تعرف لها شعوب المنطقة مثيلاً على أيدي أساتذتهم الأولين.

ذلك هو الجو الذي عاش المترجم أحداثه منذ تفتح وعيه.. وقد توافر له من ميراثه الروحي الذي سبقت الإشارة إليه ما عصمه من الانزلاق في المهاوي التي دُفع إليها الأكثرون من أبناء جيله، فكان واحداً من الفئة التي تماسكت أمام العاصفة، وجعلت تراقب خلفيات الوقائع لتتبين طريقها القويم من خلال ركام الضباب.

(٤) بازل: مدينة سويسرية عقد فيها المؤتمر الصهيوني الأول سنة ١٨٩٠م

أحداث شارك فيها

وفي إجابته على الاستطلاع الثامن لم يبعد بنا عن ذلك الجو، فهو يحدثنا عن طائفة من الأحداث التي شارك فيها وشاركت هي في بنائه الذاتي.

فأول هذه الأحداث حركة رشيد عالي الكيلاني رحمه الله عام ١٩٤١م الذي انتهز فرصة انشغال العدو بالحرب العالمية الثانية فحشد القوات لتطهير العراق من أوزار الإنجليز. وسرعان ما هزت هذه الحركة الضمائر، وأيقظت ما غفا من العزائم، فجددت الآمال بالخلاص الذي طالما بذلت الجهود وسقطت الضحايا لتحقيقه، فحالت دونه الحوائل.

ويخوض المترجم معظم المعارك التي تلاقى فيها الجيش العراقي بقوات المحتل. وكان أثنائذ ضابط ركن في لواء الخيالة المرابط في (أبو اغريب) على بعد ٥٠ كلم من الفلوجة (الأنبار) التي شبت في ساحتها أهول المعارك. ومع القطعات الزاحفة إلى هناك، مضى للقيام بواجبه في لقاء العدو، ولكن طائرات الباغين كانت تسيطر على فضاء الملحمة، فكان نصيب اللواء منها قنبلة توزعت شظاياها في كل موضع من جسمه، على صورة أيأست الأطباء من إمكان بقائه على قيد الحياة، . إلاَّ أنَّ الأجل غلب العلم، فكتب الله له الشفاء لكي يتمم مهمته المقدورة في خدمة دينه وأمته.

ويقع ثاني هذه الأحداث أيام العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦م، وكان اللواء آمر فوج مشاة في الموصل، وقد ملأت التظاهرات الشعبية أنحاء العراق، احتجاجاً على المعتدين وأنصارهم. وزحفت الجماهير الغاضبة على مؤسسات تلك الدول تحطم كل ما تصل إليه أيديها. وبلغت الحماسة أوجها في الموصل، وسقط العديد من القتلى بالتصادم بين الشرطة والمتظاهرين. . وهناك جاء الأمر من العاصمة بنزول الجيش للسيطرة على الموقف، ثم تتالت الأوامر بوجوب الضرب مهما تكن النتائج بعد أن بلغت التظاهرات يومها الحادي عشر.

يقول اللواء: كان من غير العسير عليَّ تفريق الجموع دون ما حاجة إلى إطلاق

أية رصاصة، إلا أني لم أكن مقتنعاً بهذا العمل، بل كنت موقنا أنَّ هذا التظاهر أقل ما يجب على العراق لنصرة الشقيقة مصر.

ولهذا تجاهلت أحد عشر أمراً بالرمي، وأصررت على هذا التجاهل، فكانت عقوبتي هي نقلي من بلدي إلى جنوب القطر.

وطبعي أن يكون له نصيب من أحداث العهد الأحمر، الذي سلط عبد الكريم قاسم وفاضل عباس المهداوي، على مقدرات العراق فيما بعد.

كان المترجم، بحكم كونه رئيس هيئة أركان حرب الفرقة الأولى، مسئولاً عن أمن الجنوب كله ما بين بغداد والبصرة، فكان ذلك بمثابة حماية أتاحها الله لذلك الجانب من العراق، فلم يجد القتلة الحمر منفذا إليه، على الرغم من كل المحاولات التي بذلوها، بعد أن فرضوا على سائر الأنحاء جواً من الرعب لم يعرف له التاريخ نظيراً، اللَّهم إلا أيام مزدك في فارس، والقرامطة في العراق والحجاز، والثورة البلشفية في روسية، ثم الثورة الثقافية في صين ماوتسي تونغ.

يقول الصديق الفاضل: «لقد وُضعت أجهزة الدولة كلها تحت تصرف الشيوعيين، فلم يحل بينهم وبين ما يشتهون، فهم يقتحمون الدور، ويجرّون الرجال إلى القتل خنقاً أو سحلاً في الشوارع العامة، ويستخدمون لذلك سيارات الجيش وما شاؤوا من أسلحته وأدواته، ولما حاولوا أن يفعلوا ذلك في منطقة عملي واجهتهم بالرفض الصارم، وحجزتهم عن كل عدوان».

ويقول المترجم بهذه المناسبة: «لم يكن عبد الكريم قاسم شيوعياً، ولكن كان مضطراً للاستعانة بهم، وبخاصة في تلك الأثناء التي اندلعت فيها ثورة الشواف بالموصل، فأطلق أيديهم يعملون ما يشاؤون دون حسيب ولا رقيب. . ولم يكن بوسعهم الصبر على موقفي منهم فاتصلوا به يستعدونه عليّ، فبعث إلى المنطقة بضابط يصلح لتحقيق رغباتهم، وما لبثوا أن تجمعوا حوله ليخطب فيهم داعيا إياهم إلى سحل كل ضابط ومدني يقف في طريقهم أو لا يؤيد ثورتهم، فكان عليّ أن أتدارك ما أمكن من الخطر، فدخلت على هذا الضابط أحذره مغبة

تصرفه، فلم يكن منه إلا أن اتصل بعبد الكريم قاسم طالباً إليه التدخل لإقصائي عن طريقهم، وهكذا تم لهم ما يشاؤون، وكان ذلك في الهزيع الأخير من إحدى ليالي رمضان، حيث وافتني ثلة من جنودهم فاعتقلتني، ثم حملتني في حراسة مشددة إلى السجن المخصص لأعداء الثورة في بغداد. . واستمر وجودي هناك مدى ثمانية عشر شهراً مشحونة بألوان من التعذيب الذي يعجز الوصف عنه، وفي جسدي اثنان وأربعون كسراً في العظام».

رأيه في حركة الشواف

وعلى ذكره لحركة الشواف رأينا أن نستطلع معلوماته عنها بعد أن كثرت فيها الأقاويل، ما بين متهم ومبرئ ومسوغ. . فكان من جوابه على ذلك أن حركة الشواف مبرأة من كل دافع حزبي، لأن المخططين لها كانوا من العناصر العربية في الجيش العراقي، وقد هالهم ما رأوه من زيغ المتسلطين وانحرافهم في تيار المجرمين الحاقدين، فاتفقوا على تصحيح الأوضاع، وحددوا لذلك ساعة البدء، بحيث تنطلق الحركة في كل مكان وفي آن واحد لتنفيذ المخطط المتفق عليه. . ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان، إذ علم الشواف أنَّ عدداً من ضباط الحركة في الموصل قد تقرر اعتقالهم، فلم يجدوا بداً من التعجل في العمل، وهكذا سبقوا الموعد بأربع وعشرين ساعة، وفوجئ إخوانهم بالأمر، فلم يتمكنوا من القيام بأي تدبير. وبذلك قضى على الخطة، ووقعت الواقعة التي ذهبت بخيرة عناصر الجيش بين سجين ومسرح وقتيل.

التدريس

وعن عمله في التدريس يذكر من مجالاته فيها، الكليات العسكرية، وكليات الأركان، والجامعات الأخرى في العراق وغيره. . ثم معهد الدراسات العربية العليا التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة.

ويقول عن التدريس إنه في تقديره أشق حتى من العمل العسكري لمن يستشعر حقه ويريد أن يؤديه على الوجه الأكمل، ويمثل لذلك بأن نصابه

الأسبوعي في المؤسسات التي درس فيها لم يتجاوز الساعتين. ومع ذلك كان تحضيراً لموضوع يستهلك من وقته أكثر من ثلاثين ساعة.

أما علاقته بطلابه فيحمد الله على أنها قائمة على المودة والتعاون، فلا يذكر أي سبب حاد به عن هذا الطريق قط، ولا يعرف بين طلابه الكثيرين واحداً لا يبادله التقدير والحب.

ومن ذكريات هذه المرحلة يعرض للحادث التالي: يقول: «ذات يوم كنت ألقي محاضرة في القاهرة عن نكبة ١٩٦٧م وأعدد أثناءها بعض مواطن الخطأ العسكري، فاعترضني واحد من الاتحاد الاشتراكي يقول: إنها نكسة.. نكسة فقط.. وقد أصابت النكسة رسول الله في غزوة أُحُدْ.

فكان من ردي على هذا الرجل: إنها ليست نكسة.. بل هزيمة، لا.. بل فضيحة لا مثيل لها في تاريخ الحروب. إن ما تسميه نكسة في غزوة أُحُدْ لم تكن من أخطاء القيادة، بل من أخطاء الجنود، ومع ذلك فقد قاد رسول الله ﷺ المسلمين لمطاردة المشركين في اليوم التالي حتى حمراء الأسد. فهل طاردت القيادة الحاضرة إسرائيل منذ ذلك اليوم؟».

وأعقب ذلك الرد ضجة بين الحضور سرعان ما أخرست ذلك المتزلف.

علي أنَّ في ذلك النقد الصريح لأخطاء القيادة ما يشد الذهن إلى موقف آخر للواء لا يحسن أن تخلو منه هذه الترجمة، وبخاصة أنه يتصل بصميم المعركة التي يعالج نتائجها بهذا النقد.

ففي كتابه «الأيام الحاسمة» يتحدث عن تنبيهات سبق أن وجهها إلى قادة دول المواجهة قبل الهجمة الشرسة، التي أطاحت بسمعتهم وبكرامة شعوبهم عام ١٩٦٧م.

لقد بلغت به الدقة في رصد التطورات التي كانت تتمخض بها المنطقة آنذاك، إلى حد أن يؤكد عزم إسرائيل على التحرك لإنزال ضربتها في اليوم نفسه الذي قررته وهو الخامس من حزيران. ونشر ذلك في جريدة «العرب» البغدادية

يـوم الأول من الشهـر نفسـه . . ولكن صيحتـه ذهبت مع الـريح، لأنَّ الغـرور والجهل قد أصما آذان المسئولين أثناءها فلم يسمعوا سوى صوت الشيطان الذي سبق غن غرر بأسـلافهم يوم بـدر، حتى إذا نزلت بهم الكارثـة ولى هاربـا وهو يقول: «إني أرى ما لا ترون . . .».

وقد قـدر لهذا الألمعي خبرته حق قـدرها ذلك المؤلف الإسرائيلي الـذي عرض لإنذار اللواء محمـود بشأن تلك الحرب، فقال عنه في كتـابه «الحرب بين العرب وإسرائيل» إنه أكبر عقلية استراتيجية في العـرب، ولكنه كالنبي في الصحراء . . لا يجد من يستفيد منه.

جهوده في التأليف

ويـذكر أنَّ لـه من التأليف أربعة وتسعين كتـابا (كـان ذلك سنة ١٤٠٠هـ تقريبا وزادت أعداد الكتب والبحوث بعد ذلك) ويقسمها أربعة أصناف:

أ ـ كتب عسكرية فنية تدرس في الكليات الحربية وكليات الأركان.

ب ـ التاريخ العسكري الإسلامي

جـ ـ العسكرية السياسية

د ـ اللغة العسكرية

ويعتبر كتابه «الرسـول القائد» أحب مؤلفاته إليه، ويقـول إنه أول كتاب له، وقد ظل قرابة عشرين سنة يعده ويستعـد له قبل أن يقدمه إلى النشر، وقد ترجم إلى اللغة الإنجليزية والفرنسية وأكثر من لغة إسلامية.

وهو على الرغم من كثرة مؤلفاته لا يعد نفسـه كاتباً محترفاً بل هو هاويا فقط! والـذي أفهمه من هـذا الوصف أنـه لا يكتب ما يـريده النـاس، بل ما يشعـر بالحافز الذاتي إلى كتابته.

ونظرة واعيـة متأملـة إلى موضوعـات هذه الكتب، وإلى عـلاقتها بمصـالح الفكر الإسـلامي، وحاجة الجيل المعـاصر إلى تدارسها . . تؤكـد أن الهواية التي يشير إليها لا تعـدو كونها تعبير المسلم الملتزم عن رغبته في التـوجيه إلى التي هي أقوم.

ويلخص دوافعه إلى التأليف في الجانب التاريخي قائلا: في الكلية العسكرية لاحظت أنَّ الأمثلة التي تعرض في دروس تاريخ الحرب كلها أجنبية.. والأغرب من ذلك أن يكون معظمها عن القادة الذين فتحوا للاستعمار بلاد العرب والمسلمين. ولا حصيلة لذلك سوى تعميق الانبهار بهم في نفس الضباط، وغرس الإيمان بتفوق أعداء أمته عليها في كل شيء.. وهناك كنت أتساءل: لِمَ لا نستمد هذه الأمثلة من تاريخنا وهو بها أغنى وأحفل؟ ثم أدركت أن وراء ذلك أمرين: الجهل بماضي هذه الأمة ورجالها. والثاني المنهج المخطط من قبل المستعمرين لمحق معنويات المسلمين ومن هنا جاءت رغبتي في إحياء هذه المنسيات والكشف عن تلك المؤامرات، فحزمت أمري على العمل بكل ما أمكنني لسد هذا الفراغ في مكتبتنا العسكرية.

وعن بواعثه لإخراج كتبه المعروفة عن «طبقات القادة» يقول: «عندما كنت في سجن بغداد سألت العديد من الضباط عن القادة الذين فتحوا بلادهم، فلم أسمع جواباً سديداً، بل لم أسمع جوابا قط، ومن هنا وجدتني مدفوعاً إلى تيسير هذه المعلومات الأساسية بالكتب المناسبة.

ومنذ العام ١٩٦٧م توقف ـ يقول ـ عن الكتابة في هذا الجانب من التاريخ، لينصرف إلى الجوانب الأخرى التي كشفت نكبة ذلك العام عن مسيس الحاجة إليها في صفوف العسكريين، وبخاصة أنه يعتبر جهل العرب بالعدو الذي حاربوه كان السبب الأكبر في هزيمتهم أمامه. وهكذا أكب منذئذ على الكتابة في الدراسات العسكرية، فكان من ذلك «الوجيز في العسكرية الإسرائيلية» و«العسكرية الإسرائيلية» و«حقيقة إسرائيل» و«دراسات في الوحدة العسكرية العربية» و«أهداف إسرائيل التوسعية في البلاد العربية» و«طريق النصر من معركة الثأر» و«الأيام الحاسمة قبل معركة المصير وبعدها» وما إليها.

وتقوده دراساته وخبراته العملية والنظرية في المجمل العسكري إلى وجوب العناية بتوحيد المصطلحات العسكرية في الجيوش العربية، فدعا إلى تكوين

لجنة عامة من ذوي التخصص، تتفرغ لوضع معجم عسكري موحّد ـ بالكسر ـ واستجيب لدعوته فتألفت اللجنة، واختير ممثلاً للمجمع اللغوي المصري فيها ورئيساً لها، وعن هذه اللجنة صدر المعجم العسكري الموحّد في أربعة أجزاء، إنجليزي عربي وبالعكس، وفرنسي عربي وبالعكس. وكان لهذا المعجم مردود عال، إذ قدم للجيوش العربية واحداً من أهم الوشائج الممهدة لوحدتها، هذا فضلا عما في هذه الأعمال من دلالات على اهتمام المترجم بخدمة اللغة التي درج على حبها منذ نعومة أظافره. وحسبنا أن نشير من ذلك بوجه خاص إلى ذلك المجهود الكبير الذي اقتضاه تتبع كلمات القرآن الكريم لاستخراج ما يتصل منها بالمصطلحات العسكرية، وفي هذا ألف الجزأين من كتابه «المصطلحات العسكرية في القرآن الكريم» وكذلك عنى باستخراج ما انطوى عليه كتاب ابن سيده «المخصص» من هذه الأصول التي لا يستغنى عنها من يهمه صيانة العربية من غزو اللغات الأجنبية.

مستقبل الجيل

ورأيه في مستقبل الجيل الذي يسهم في خدمته مع إخوانه رجال الفكر والدعوة، فيأتينا جوابه مكثفاً في هذه الكلمات:

يقول: «إنَّ قوى هائلة تعمل على تحطيم هذا الجيل، وتفتيت قدراته، وكانت من قبل مقصورة على العدو الخارجي، أما اليوم فقد وجدت لها مرتكزات لا تحصى في الداخل». وهو لا يفرق بإزاء هذه القوى ما بين قطر وآخر من ديار المسلمين، بل يعتبر المحنة متشابهة فيها جميعاً.

ويقول: إنَّ أفكاره حول هذا الموضوع مبثوثة في العديد من مقالاته ومصنفاته. ويخص بالذكر منها كتابه «بين العقيدة والقيادة» و«الإسلام والنصر» وفي كل من العنوانين صورة بليغة التعبير عن وجهة نظره في هذه الناحية، وتركيز دقيق على ارتباط مستقبل هذا الجيل صعوداً أو هبوطا بمدى التزامه هداية الإسلام، أو إعراضه عنها.

مهمة العلماء

وبمثل ذلك الإيجاز البليغ يصوغ الجواب على آخر فقرات الاستطلاع، وهو يحدد مهمة العلماء ومدى إمكاناتهم في ضبط مسيرة الجيل، والعمل على تحقيق المجتمع الإسلامي المتكامل.

يقول فضيلته: «لكي يتمكن العالم الإسلامي من النهوض بكل هذا العبء لا مندوحة له عن شروط ثلاثة: سعة الأفق العلمي التي تمكن من فهم عصره وما يعتوره من مشكلات، وما تتطلبه من الحلول في ضوء الإسلام.. ثم الإخلاص لله بحيث لا يخاف في الحق لومة لائم، والثالثة الحفاظ على كرامة العلم، فلا يمتهنها بالحاجة لغير الله.

ففي رأيه أن عالما يستكمل هذه العناصر لا بد أن يكون موضع التقدير والأسوة للشباب الذين يتعذر عليهم أن يستسلموا لغير الله.

ويؤكد على هذا الرأي قائلاً: «إن المسلمين اليوم في حاجة ماسة إلى قادة أمثال خالد والمثنى و.. إلا أن حاجتهم إلى العلماء العاملين أمس وأشد.. هناك أزمة ثقة بين الشيوخ والشباب، ومرد هذه الأزمة إلى فقدان عنصر القدوة الصالحة في معظم الذين يعدون في الشيوخ، ويظنون أن كل ما عليهم هو أن يحسنوا عرض الموعظة السطحية، ولو كان سلوكهم الشخصي أبعد ما يكون عما يدعون إليه».

لمحات من شعره

وحتى الآن كانت الصورة البارزة للمترجم أنه الرجل العسكري المثقف، الذي وقف قلمه على هذا الجانب من تخصصه في كل ما كتب وألف وحاضر وهو اتجاه لا ينتظر معه أي نزوع نحو الشعر، وما يحفز إليه من هتافات الخيال وتموجات العواطف. ولكن سيادة الأخ العزيز قد أبى إلاَّ أن يحدِّد ـ ولو إلى حد ـ ذكرى الشعراء الفرسان الذين جمعوا بين صناعة الموت ورقة الأفئدة لنستمع إليه يرسل هذه الزفرات في رثاء جدته:

أجْهَدْتِ نفسَك فاستريحي قليلاً ... قد كان عبئك في الحياة ثقيلاً
نزلت عليك مصائب الدنيا ولو ... نزلت على جبل لخرّ مهيلاً
وجد القنوط إلى الرجال سبيله ... وإليك لم يجد القنوط سبيلاً
ولرب فرد في سمو فعَاله ... وعلوه خُلقا يعادل جيلاً

إنها أبيات على قلتها تعكس ثقافة أديب متمكن كملت له الأداة، فهو يتذوق سر الحرف، ويحسن تأليف النغم المؤثر. . وتستجيب له القافية في عفوية لا تتوافر إلا للشعراء المتمرسين.

وفي فلسطين تسترد قواته مدينة جنين من قبضة العدو بعد تركيزه فيها، فكان لذلك أثره المشكور في نفوس أهليها، الذين قابلوا هذه المنة بالمودة البالغة. ولما حان موعد انصراف هذه القوات ـ إلى العراق ـ إثر وقف القتال المفروض شيعت جنين منقذيها بكل مظاهر الاعتراف بالجميل.

وفي أحد تلك الاحتفالات، وقد قصد لإقامته في المقبرة التي ضمت شهداء تلك القوات، وقف اللواء الركن ليرد على تحية الأخوة بهذه النفثات اللاذعة:

هذي قبور الخالدين فقد قضوا ... شهداء حتى ينقذوا الأوطانا
المخلصون تسربلوا بقبورهم ... والخائنون تسنموا البنيانا
لا تعذلوا جيش العراق وأهله ... بلواكم ليست سوى بلوانا
أجنين يا بلد الكرام تجلدي ... ما ضاع حق ضرجته دمانا
إني لأشهد أنَّ أهلك قاوموا ... غزو اليهود وصاولوا العدوانا
فإذا نكبت فلست أول صارم ... بهظته أعباء الجهاد فلانا
مرج ابن عامرَ خضبته دماؤنا ... أيصير ملكاً لليهود مهانا!
إني لأعلم أنَّ دين محمد ... لا يرتضي للمسلمين هوانا
وهو الخلود لمن يموت مجاهداً ... ليس الخلود لمن يعيش جبانا

ومع أنها نظمت في وقت لا يتسع للتنقيح ــ كما يقول ـ فقد حفلت بصور مكثفة للواقع الرهيب الذي حاط بقضية فلسطين، ثم انتهى إلى انسحاب

«الجيوش السبعة» لتدع العدو مطلق اليدين في الأرض الحبيبة يتصرف بها وببقايا أحفاد الفاتحين فيها كما يشاء.

شهادات غير مكتوبة

وبعد فهذه خطوط عجلى حاولنا بها الدلالة على شخصية لم يعد في أوساط المثقفين من العرب والمسلمين من يجهل مكانتها وآثارها.

وقد بقي علينا أن نختم هذه الخطوط بإشارة أخرى إلى المراكز الرسمية التي شغلها ولا يزال يشغل بعضها حتى اليوم.

أول هذه المراكز رتبته العسكرية التي أصبحت لقبه الذي لا يفارقه عند كل تعريف، وهو أنه لواء ركن باستحقاق أكثر من عشرين سنة في الجيش العراقي، ومميزات لم يقترب منها كثيرون ممن أعطوا أنفسهم أو أعطوا مثل هذه الألقاب.

ثم تأتي مراكزه العلمية:

- فهو عضو المجمع العلمي العراقي.
- وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة.
- وعضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر.
- ورئيس لجنة توحيد المصطلحات العسكرية للجيوش العربية في جامعة الدول العربية.
- وقد اختير عضوا مؤسسا في مجلس رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة.
- ثم عضوا في المجلس الأعلى العالمي للمساجد التابع للرابطة.
- وأخيرا لا ننسى أنه شغل المناصب الوزارية سبع مرات.

وليس هذا وذاك سوى شهادات غير مكتوبة تؤكد إجماع الأوساط المختلفة من عسكرية وعلمية ودولية وإسلامية على أن هذا الرجل موضع التقدير والإعجاب والثقة من الجميع، وعلى سائر المستويات.